

قراءة في إنسان الوطن للشاعر عبدالرؤوف بابكر السيد

ورقة بحثية مقدمة من الدكتورة : هدى رجب العبيدي

استاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات بالأكاديمية الليبية

قراءة في إنسان الوطن للشاعر عبدالرؤوف با بكر السيد

الدكتورة : هدى رجب محمد العبيدي

قسم اللغة العربية بمدرسة اللغات بالأكاديمية الليبية_ طرابلس

قضية الشاعر :

إن شاعراً بلا قضية، شاعرٌ بلا مذاق خاص، وبلا تجربة، والقضية هنا لا تعني بالضرورة، الهم العام، أو الشاغل القومي، وإنما هي تتنوع وتتشكل وتتفرع، فمهمة الشاعر أن يجسد الحلم البسيط ويسقي شجرة الواقع لكي تنمو، وتكبر، لتصبح غابة من الأشجار. هنا فقط يُعرف الشاعر بهمه وتجربته وقضيته، ومذاقه الخاص لأن الشعر يمثل حلم صاحبه الأثير، وجناحيه إلى السماء، وبقدر ما يشف الإحساس، وتصفو الروح، وتنتور النفس، ينزع الشاعر من طين بشريته، وينطلق طائراً، أو شهاباً، أو قوساً من الريح على آفاق رحبة ليست بها قيود الجاذبية .

إن الإشكالية تكمن في قراءة نصوص التراث بشكل عام وخاصة التراث الديني، وفهمها فهماً صحيحاً، وكشف ما تنتهي عليه من فاعلية بشكل علمي موضوعي. وما إن ينهض مشروع أو طرح يساهم بشكل أو بآخر في فهمها، ومد جسور تصل بين العصور، لتزيل الهوة الشاسعة بين المسلمين المتفرقين باسم الشيع والمذاهب المختلفة حتى يُجهض، وتُطلق على ممثليه ألقاباً كالتنويريين والملحدين، والعلمانيين، وهي ألقابٌ يراد بها الوصم بالكفر، والمروق من الدين، وكل ما يستتبع ذلك من أوصاف تلك التساؤلات الملحة، مع علامات ترقيم توحى بأن هناك الكثير في جعبة مبدع النص التي تلين بحروف لين وعطف ، حتى إن عجزت ارتمت في أحضان علامات الحذف، التي تقوم بدور المنقذ؛ حيث تتولى إخبار المتلقي بالكثير والكثير الذي عجزت اللغة عن توصيله .

القضية واستحضار التراث:

من هنا كان لجوء الشاعر المعاصر إلى النصوص التراثية بمجملها، والمزج بين الماضي والحاضر، ما هو إلا بحث عن الإحياء والشمول والانتماء غير المفرط، وخلق وابتداع منهج حيوي يعطى النص الشعري الدفء والدينامية، والحلم بمستقبل أفضل والسعي لتحقيق تلك الأحلام، خاصة وأن فترة النصف الأخير من القرن الماضي تعج بالمرارة، والعجز الذي كبل العقول قبل الجوارح، وفرض القيود والكوابح، فخلق المجازر والمذابح، فلا بد من استنهاض الهمم وهو دور ليس باليسير يقول الشاعر:

” وتطيب لي لغة حروف هجانها الإيماء،

والهمس، والتخاطر، والمشاعر، والدوائر،

والمهاجر في القرون بلا شرع ..

ويطيب لي أن أستفيد من البعيد،

الرمز يخفق مثل تشكيل الرموز ..

بلوح بد الخلق والأجوع والقيود الحديد مع الصراع ..

تتناوب الكلمات حين تكون قافية بلا معنى ومفردة بلا إيقاع ”

إن استحضار التراث في هذا المقام، ورفض البنية السياسية، يوقظ في نفس القارئ "المتقف بالتراث" استجابة تربط الاستجابات الهاجعة في الذاكرة، بالموقف المستجد الذي يقدمه الشاعر، غير أن استخدام التراث يأتي على صور متعددة، "منها الاستشهاد والتمثيل، وهما أضعف أنواع استخدام التراث، يليهما التضمين الذي يورد

فيه الشاعر بيتاً أو كلمات بنصها ولكن ضمن سياق قصيدته، وهو مما يسمح له بإزاحة الاقتباس عن معناه الأصلي⁽¹⁾.

وكان أبي عدائياً

يحبّ الذات والشهرة ،

يلبّي داعي النخوة ،

يعبّ الكأس ما شاءت له الشهوة ..

ويشرب ماءه صفواً

ويترك ما به كدراً لآخر ..

وعلى ذلك فالبنية الخلاقة التي دعت إليها جميع الأديان، ودعا إليها المفكرون والمبدعون تحمل سمات وخصائص معينة، غير السائد المرفوض من قبل هذه البنية، هذه البنية التي تتادي بالارتقاء بالوعي، وترك الطيش، والنزق، وسرعة الانفعال، والمناداة بالتآخي والمساواة حيث لا فرق بين أبيض وأسود ولا عربي وأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، ونبذ التعصب وعدم استباحة الآخر وتحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وتدعو إلى عدم السخرية من الآخر بل معاونته، ولا تعتمد الإيمان إلا إذا أحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه، والدعوة إلى حياة عصرية تقوم على أسس إنسانية لا تسعى لامتلاك القوة بأبنائها استناداً على تراث ارتضوه حاكماً لمسارهم، وأفكارهم، متمثلين بأقوالٍ سلبية؛ كقول عمرو بن كلثوم*

* عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن ربيعة بن زهير .. شاعر جاهلي ، ولد في شمالي الجزيرة العربية في بلاد ربيعة وتجوّل فيها ، وكان من أعز الناس نفساً ساد قومه وهو فتى . وقتل الملك عمراً بن هند ، وتوفى 40 ق هـ .

ونشرب إزوردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرنا وطينا (2)

بالمقابل نجد الكثيرين ممن حولنا يحملون البنية الخلاقة فلا :

لا يردوز الماء الإعشوية إذا صدر الوراد عز كل منهل (3).

إن الصراع القائم بين البنى الثلاث، سواء داخل عقل الإنسان نفسه أو بين البنى السائدة في المجتمعات، يحتم علينا إمعان النظر بجديّة في الوسائل التي تتبعها والمحاولات المستمرة لاستقطاب أكبر عدد من الأفراد إليها، فالآن كل بنية تحاول أن تجذر قواعدها وأسسها لتستمر في برامج عطائها وتكرار نفسها، عن طريق المدخلات، من تراث متمثل في النتاج القولي برمته، لأنه المشكّل الرئيس للنفوس والعقليّات والمحرك الحقيقي للرغبات والأهواء والثورات على مر التاريخ مع أنه تراكب خطابات البنى الثلاث.

مما دفع الكثير من المبدعين إلى رفض أخلاقيات ومبادئ البنى القاصرة، (الأولية التناسلية، والمادية البرجوازية) ورفض نهجيهما الذين يجرانهم إلى دائرة البشرية في حين أنهم ارتقوا إلى دائرة الإنسان بأخلاقه ومبادئه وقيمه التي من أجلها خلق .

فكل البنيات تحب الخير ولكنها أعجز من أن تقف معه إلا البنية الخلاقة التي لا يستطيع حملها إلا وجدان الإنسان الكوني ف :

الخير محبوبٌ ولكنه يعجز عنه الحُرُّ أو يكسل (4).

ويقول المعري : ومن جعل السخاء لأقربيه فليس بعارف طرق السخاء (5).

ولقد كان للشعر والشعراء دور كبير في ترسيخ مبادئ وقيم البنية الخلاقة، فالشعر هو أحد أهم مدخرات المشاعر التي تتميز بالصدق والفاعلية، إنه عصارّة القلب

تصب في بنية الفاعلية اللغوية تتشربها الحواس، وتعيها بنى الوعي المختلفة كلاً وفق قراءته، إلا أن شعراء الرفض والتمرد استطاعوا تعرية البنى القاصرة ومحاربتها، وذلك لما واجهوه من ظلم، واستعباد وقهر، ونفي حاملين معاناتهم ليجسدوها في لوحات إبداعية ترمز للثورة، والتمرد، والنضال والدعوة للحب والعشق والخير والعطاء الشامل والعمل على تغيير الفرد بالعودة إلى الذات، بتغيير ما بها، وفي ذلك يقول المعري :

فما أذنب الدهر الذي أنت لائمٌ ولكنني حواء جاروا وأذنبوا (6).

اللغة وأبعاد الفجعية :

على الرغم من أن الشاعر عبدالرؤوف بابكر السيد أستاذاً للغة العربية، ممتكاً لناصرية الحرف، إلا أنه يصر على الإشعار بعجز اللغة عن التعبير ووصف الحال بالركون والعجز والموات، فالمفردات ماتت على الشفاه ، ولم تعد قادرة على التأثير والإقناع.

”أنا المفجوع في لغتي .. التي تاهت مخارجها ، مفاصلها بغير هدىً

أنا الموجوع في وطني ..

وقد أضحي ملعباً للجمر ،

تطربه القوافي في الرثاء ..

وفي الماضي الذي ولّى بلا استحيا ”

وربما أصبحت محصورة في استخدامات الحياة اليومية المعيشة ، أما المشاعر والمحبة والقصيدة والإنسان المتبئل والقيم العليا، فقد تجلت في مفردة الحرف التي

يكثر شاعرنا عبدالرؤوف من استخدامها وكانت عنوان مجموعته الأولى (الحروف) ، تلك الحروف التي كتبت بحبر غير كل الأحبار، صقلت بالمشاعر ، وثقفت بالوزن والإيقاع والأنين والحنين ،وعند حصرها في قصيدة (إنسان الوطن)، وجدنا أنها تكررت (29) مرة متمثلة في كلمات (لغة وصوت وهجاء وحرف) ارتسمت جدراناً، واشتعلت دخاناً، وانطلقت رصاصاً ، تتمزق تتصلب، تموت وتحيا .. تسمو .. تغوص بأسفلها تتشكل روحاً وجسداً ، تعبت .. تلهو ..تؤمن تكفر .. تبعد .. تخلق هي ذات الروح من أمر الرب .

الحرف في نصوص عبدالرؤوف يحمل معاناته ومعاناة جيل بأكمله، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، رؤية في الما قبل والما بعد :فيعمل عمل المسحراتي في الظهيرة ...يتقدم بكل أدب وراقي واحترام مستأنناً من حوله ممن كثرت أعدادهم بلا بوصلة ولا دليل، فيقول :

أودّ هنا _ مستأننا قاماتكم _

أن أسبق الخطب العصيّة

وأعرض للقضية

رافعا صوتي : أنا ابن العصر

أحملُ شمعتي وسط الظلام

وأخلصُ الناجين من تحت الركाम

وأضمدُ الجرح الذي لا زار ينزف

من عهود خطها الفعلُ ونام

بإيقاع وأصوات نديّة ،

صاغها التهميش في الأحلام"

ولقد عُرف عبدالرؤوف باتزانة وهدوئه فلا نكاد نسمع صوته وهو يتحدث، ولكن عند صعوده منصة الشعر ليلقي بדרره على المسامع التي تأبى إلا أن تنصت، تنقشع الشخصية التي تختبئ وراء ذلك الجسد النحيل ، بصوت رخيم أوبرق وأرعد ، يضحى " شيخاً أخذته نشوة الجذب في الحضرة ، فارساً يمتطي صهوة فرسه الجموح ، كاشفاً للجموع عورة الأمة ونهاية نفقها الطويل ، ناصحاً واعظاً كقس بن ساعدة ، باكياً مولولاً كما الخنساء ، مغترباً كما السياب تائهاً بلا مرفأ كبقية السرب : محمود درويش ،وأمل دنقل ، وعلي الفزاني "(7).

فالكثير ممن يعرفون عبدالرؤوف يتساءلون عن سر هذا الانقلاب، وهذه العاصفة والصراخ والعيويل والتراوح بين أسلوب الترهيب والترغيب ، كيف يخمد كل ذلك في لحظة واحدة ، حيث العودة والانفراد مع الذات والركون إلى اليأس وخيبة الأمل والانكسار الذي يصعب معه حتى مجرد الكلام .

ومن خلال نصوصه نلاحظ دكتاتوريته على الحرف ، والمفردة والوزن !! لم يستطع ممارستها على البشر وإنما مارسها على مخلوقاتٍ هي من صنعه، (الحروف والمفردات)، فخلق منها إمبراطوريته ، التي يرأسها وأبى هذا الإمبراطور أن يمارس ظلمه وجبروته على خلق الله ، وأثر ممارستها على الحرف والمفردة، والدلالة، والقافية والوزن والإيقاع .

هل هذا الجبروت نوع من الترف، حرم نفسه منه وبدده على مخلوقات قام هو بصنعها، ألا وهي(الأبجدة)؟ إنها القيافة، والهندام، التي يراها عبدالرؤوف، هذا هو الترف الحقيقي، والغنى الذي لا يبلى، والعمر الذي ليست له نهاية والتاريخ المذهب،

والأبناء الأبرار. هذا هو الإبداع الحقيقي، والهدف هو استصلاح الواقع، فالواقع لا يكون جميلاً إلا من عمل واستصلح دواخله فكانت جميلة لأنها انعكاس لما بداخل الفرد .

..يقول الشاعر :

" قلنا نصالح ..

فاستمالتنا مغارات الشجن

قلنا صلات القُرب تَهدينا ،

صلات الغرب تحمينا ..

فداهمنا الوهن

قلنا لنا الله ،

قال الله ما بالنفس حبُّ قد سُجِن ،

فكّوا إَسار الحبِّ في جنباتكم..

بين الشاعر ومعاناة الوطن :

وقد يلاحظ القارئ المتلقي معاناة الشاعر عبدالرؤوف المرتبطة بمعاناة وطنه، مما جعل هذه المعاناة، تحتل جزءاً كبيراً وواضحاً في شعره ،لقد رأى سعد التميمي(بجامعة إب " في قراءة عنوانها " عبدالرؤوف بابكر السيد سيرة الوطن والذات) أن عبدالرؤوف قد أحسن اختيار أدواته، ونجح في تشكيل هذه المعاناة

بصورة ميزته عن معاصريه من شعراء جيله، الذين عانوا معاناته، تلك الأدوات التي استخدمها بطريقة مغايرة للمألوف والمتعارف عليه، إذ طالما تسحب مثل هذه الموضوعات ذات الطابع الأيدلوجي والخطابي الشاعر نحو الخطابية والغنائية والمباشرة، يقول :

أن أسبق الخطب العصية

وأعرض للقضية

رافعاً صوتي : أنا ابن العصر

لكن عبدالرؤوف استطاع أن يحقق هدفين في الوقت نفسه:

الأول : وهو الغاية من خلال عدد غير قليل من التقنيات التي من شأنها أن تستفز المتلقي، وتؤثر فيه.

أما الثاني: فيتمثل بالإبلاغ عن طبيعة المعاناة وأبعادها وحدودها والتنبيه من خلال قصيدته " إنسان الوطن " التي يتجسد فيها الهدف الأول، من خلال القدرة العالية في التعامل مع اللغة على مستوى الألفاظ، والتراكيب، وتفجير طاقاتها الشعرية العالية، من خلال عدد كبير من التقنيات، التي تفاجئ المتلقي بين الحين والآخر، بمفارقات دلالية غير مألوفة، والهدف الثاني، الذي يتجسد في الموضوع الذي تعالجه القصيدة، يتمثل بسيرة الوطن، الذي يتحد بذات الشاعر، فتارة يبكي الشاعر نفسه، وأخرى وطنه، الذي ضاع بين الارتقاء في أحضان التراث بغثه وسمينه أو بين الارتقاء في أحضان الغرب .. وهنا نلاحظ نجاح عبدالرؤوف وقدرته في إيصال معاناة الوطن وجراحاته وانتهاكه من قبل الكثيرين إلى المتلقي، مما جعل القصيدة تعبر عن هموم المتلقي أيضاً الذي يشارك في همومه⁽⁸⁾ .

ونتيجة لذلك كله، يمكننا أن نذهب إلى أن الشاعر يحاول _ في هذه المرحلة أن يعتمر كل إمكاناته _ وأن يستثمر عطاءها، فيجعلها تتجاوز حدود مناطقها التعبيرية، من أجل أن تحيط بكل أعماق التجربة الشعورية وأبعادها الخفية، وها هو عبدالرؤوف يسلط الضوء ويوجه الأنظار إلى المفردة، ذلك النبع الثر، الذي يعبر عن أي مجتمع رسم لأفراده حدوداً ارتضاها ، فيعكسها الحرف، وتعكسها المفردة مشكّلة إشعاعات تنطلق من أكامها فتلّون الجو، وتملأ الأوراق بأريجها الذي تضوع منها فيقول :

” تتشاءب الكلمات حين تكون قافية بلا معنى ،

ومفردة بلا إيقاع ،

تتسرب الكلمات بالوصف والتقدير للماضي وللطفل الذي يأتي بغير هدى ..

ويموت جذر الفعل حين تلوّكه الأفواه

لا طعما ولا اسما ولا حرفا

يجر الصوت نحو القاع

تسدّ منافذ السماع.”

تشكل مفردات تلك الأسطر الشعرية، بتجاوزها وارتباطها، نقطة مضيئة تكشف عن تلك الخواطر المبهمة التي يحاول الشاعر أن يكتفها ويزيحها، بحثاً عن اللامحدودية، التي تعطي النص الغموض والعمق للخواطر والأحاسيس، وهذا بدوره يؤدي إلى صعوبة تتبّع الشاعر في انفعالاته، وتعقبه فيما تنتجها الانفعالات من صورٍ متلاحقة، ورؤى متناقضة غامضة، من خلال تركيباته اللغوية غير المألوفة .

البُعد الزمني ودلالاته:

ولقد أسرف شاعرنا في استخدام الأفعال المضارعة؛ ليوحي بسرمدية الأحداث والقوانين التي تنظم مسيرتها، ويؤكد شرعية ما يجري وطبيعيته، مثل (تتسرب، يأتي، يموت ، تلوكه،يجر، تسد ، يغوص،تستوحي ، تسافر ، تقول، تعلن، يقارع، يدون، يبحر، يحب، يلبي، يعبئ، يشرب ، يترك ، يدون، يضىء، تغيب، يخوض، يحميها، تحضن، يغرد، يذوب، يطوف، يطوي، أسرج، أهرب،أذق، تطربه،أسبق، أعرض ، أحمل، أخلص ، أضمد، أعري ،أشق، يقتسمون، يقتحمون ،ينتهبون ،...إلخ) وعند حصر كل الأفعال المضارعة في القصيدة كاملة، التي ينتمي إليها ذلك الجزء، نجدها (87) فعلا مضارعاً في قصيدة واحدة .ناهيك عن المجموعة بأكملها، والتي تحمل معنى الزمن الحاضر. وينظر عبدالرؤوف إلى فكرة الزمن نظرة تكاد تكون عامة في مجمل دواوينه، فلا يكسبه بُعداً واقعياً ، بل قد يجعل المضارع يسد مسدّ الماضي، والمستقبل، ويمتد بينهما، لأن الحدود الزمانية تتحطم، ويسيل ما بها في كل الاتجاهات، فيختلط الماضي بالحاضر والمستقبل، أو يتبادل كل منهما مكان غيره، لأن صيغة المضارعة لا ترتبط بزمن معين .

بينما نجد من زاوية أخرى تصويراً استعارياً رمزياً مع إهمالٍ في لوحة الشبه الحقيقي بين طرفي الاستعارة، وبذلك تجرد الصورة الاستعارية من كثافتها المادية وتتحول إلى قيم معنوية بعيدة عن الأرض ولكنها تسكن نفس الشاعر:

هو طفل جنتي التي أعددتها لأمينها والمؤتمن "

وكان أبي يقول الشعر في الأسواق

وفي الوالي للاسترزاق ،

وفي فخر وأنهار من الخمر المعتقّ ..

وكان أبي عصامياً

وكان أبي جهادياً

كان يقارع الأبطال والإفرنج والأتراك والمستعمر الباغي ،

وكان يدون التاريخ إنساناً ..

ويبحر في محيطات من الرمل ..

لمّ الشمل ، محجوب الأفق ..

وكان أبي عدائياً

يحبّ الذات والشهرة ،

يلبّي داعي النخوة ،

يعبّ الكأس ما شاءت له الشهوة ..

ويشرب ماءه صفواً

ويترك ما به كدراً لآخر ..

وكان أبي يدون علمه سفراً

يضيء الكون شمسا لا تغيب

وكان أبي فدائياً

يخوض معارك التحرير في الأوطان ،

ويحميها رمالا أو جبالا أو مياها تحضن الشيطان ..

وكان أبي مع الأيام صوفياً

يغرّد باسم خالفة ،

يذوب القلب بأسم الله

وياالله .. يا الله .. ويا ممان ..

بمفردة يطوف العالم الدنيا ، ويطوي عالم النسيان .”

الخلفيات الثقافية :

إن للثقافة السائدة دوراً كبيراً في تحديد القيم والمعايير التي يجب أن يتسم بها الفرد داخل المجتمع ، فالقيمة في أبسط تعريفاتها "هي طريقة في الظهور أو التصرف يراها الشخص، أو الجماعة، نموذجية، وهي من ثم تجلب التقدير للشخص الذي يراعيها أو للتصرف الذي يصب في اتجاهها"⁽⁹⁾ بما يخدم مصالح البنية السائدة القاعدية التتاسلية، الفتوية المتعصبة، ويساعدها في إعادة إنتاج نفسها ويحميها من الدمار، وبذلك تتحقق وظيفة القيم في تأمين التماسك بين أفراد الجماعة المؤمنة بها، مشكلة إرثاً ثقافياً تراكمياً تراكمياً، يصعب التعامل معه في ظل التعصب والتزمت والادعاء الكبير بامتلاك الحقيقة التي لن يصل إليها أحد.

ولكن هذا كله لن يقف أمام ما تنوي هذه الدراسة طرحه، من أجل الكشف عن محاولات الشاعر تقديم مساهمة فاعلة في بناء مجتمع كل شيء فيه مدعاة للثقة .

فالثقافة السائدة خليط مركب من تراث شكلته أزمنة وحقب ومجتمعات متعددة، وهو بالتالي يجعل المواطن العربي في حيرة ..ولابد لإنسان هذا العصر من تحديد موقفه وانحيازه لبنية الوعي الخلاق.

هذا الارتباك لدى المواطن العربي أثر عليه كثيراً، واختلطت عليه الأمور، وأضحت جميع البنى تستقطبه وتتاديه.. فما يبقى عليه إلا أن ينحاز بعد تحديد الرؤى إلى رؤيته المعاصرة، وبنيته الخلاقة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذا الاستلاب التام للماضي، أو الانقياد التام للغرب .

فالمعاصرة لا تعني الانحياز أو الانقياد للغرب.. وإنما تعني الرؤية الحضارية للعربي في هذا العصر من واقعه ومجتمعه وثقافته وقيمه وأخلاقياته.. فالرسول الكريم بعث ليتمم مكارم الأخلاق، والقيم الدينية تدعو إلى الخروج من دائرة البشرية إلى دائرة الإنسانية بقيمها ومثلها الرفيعة ..وهاهو النص يطرح تساؤلات عن إنسان العصر كيف يكون :يقول الشاعر :

من أنت يا هذا ؟؟

أنا ذلك المحمول في كفّ القدر

الشمس تحرقه لظى

لا يحمي أو يتقي سيف الصقيع

فيلوذ بالحرف الذي ..

ويلوذ بالكلمات ينثرها ،

ويعوذ بالإنسان من فعل البشر

ويسائل الكيف الذي ..

وعن المتى ،

الأين ..”

إن سلوك الإنسان من المهد إلى اللحد يتشكل باستمرار وفق معطيات ثقافة الجماعة، وبالتفاعل مع مؤسسات التربية والتنشئة، من عائلة ومدرسة ... الخ. كما تؤثر في تكوينه أنماط الثقافة الواسعة التي تشمل الأعراف والعادات والتقاليد ووسائل الاتصال، والاحتفالات، والطقوس، وما إلى ذلك؛ مما يسهم في عملية تطبيع تتولاها تلك المؤسسات الأولية. فالطفولة هي فترة التطبع، وما يربى عليه الطفل هو الأساس، سواء في الفعل أو في ردات الفعل في طابع شخصيته المستقبلية .

وقلما نجد ذلك في المجتمعات العربية، التي يتكون أغلبها من عامة الشعب، الساعية وراء القوت اليومي على حساب الأطفال، وهم في أخطر المراحل سناً وتلقياً، مما ينعكس سلباً على حياة المجتمع بأكمله، وتكاد تنعدم التربية السليمة وإدخال مدخلات إيجابية، ترقى بمستوى ثقافة المجتمع، اللهم إلا من كان له إرادة وعزيمة تسهم بشكل أو بآخر في تغيير حاله من الأسوأ إلى الأحسن، وهذا شيء نسبي على ما أعتقد.

ذلك بالإضافة إلى الغزو الثقافي، وطغيان البنية البرجوازية في النصف الأخير من القرن الماضي، مما لعب دوراً كبيراً في غياب الآباء عن أبنائهم، من أجل تأمين العيش فقط، وهم لا يعلمون بأن تلك التربية، تزيد من عجز النشء عن التكيف في عالم كل شيء فيه مدعاة لعدم الثقة، نشء قلق متحدٍ، غير مبالٍ بالعالم الخارجي، يفتقر إلى القدرة على المبادرة وتحمل أعباء الحياة، مليء بالحقد الدفين والعداء

الكامن، يضعف هكذا تكوين "ما فوق الأنا، ويدخل كل شيء في هذا المجتمع في مهمة تفتيت السلوك فتتواتر فيه السلبية والانفجارات العدوانية العنيفة" (10).

ناهيك عن القمع والحرمان وفرض المحرمات بخشونة ، وغيرها من العمليات المصاحبة للتنشئة التي لها ردود فعل عنيفة؛ " ذلك أن شلّ أي ميل من الميول عند كائن حي يولدّ توتراً ويؤدي، قبل كل شيء، إلى رد فعل طبيعي عادي يتلخص في تصرف عدائي، وإذا شلت العدوانية نفسها فإن التوتر يشتد ويؤدي إلى القلق. إنّ أنواع الحرمان الجسدي مع القمع، تؤدي إلى مظاهر الكبت الخطيرة ... والطفل الذي ينال الكبت أثناء تنشئته الأولى وتعليمه المحرمات، والذي يحس بالتالي أنه محروم، خائف، كثير الشك، يكون في حالة نفسية وفكرية تختلف عن حالة الطفل الذي يبدأ في التعرف على العالم فيجده طيباً وجميلاً " (11).

علماء بأن كل أنواع الكبت العاطفي المبني على الزجر والنهي والتخويف التي تفرض على الأطفال تترك آثاراً بعيدة، تتجلى بشكل ضمني في العديد من الاتجاهات ، ك " البحث عن الثروة والجري وراء السلطة تعويضاً عن ذلك الكبت، إنها، أحياناً، رمزٌ للفرد المكبوت الذي يفتش في المنافسة العدائية ، عن الاشباعات الجنسية التي لم تتحقق " (12).

ويشدد إريك فروم (13) على أن نمط الحياة الجماعية ينجم عن مزيج ثقافي مركب من عوامل تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية، وهذه الثقافة تظهر عن طريق الأفكار والمواقف التي ترسم شخصية الطفل عبر العائلة وعبر المدرسة أيضاً، وعبر الجماعات العديدة التي سيعاشرها الطفل إلى أن يصبح مرافقاً .

وبعد أن يطلع الإنسان على ثقافة مجتمعه، حينها يقرر البقاء في تلك البنية، أو يقرر الانفلات الذي لن يكون هيناً، متعرضاً لكافة أساليب الجذب والإسقاط، فإذا

كان حاملاً لمشروعه مدافعاً عنه، بكل ما أوتي من إرادة وعزيمة فينفلت، وإذا لم يكن كذلك استطاعت البنية اجتذابه إلى فضائها ومن ثم ضَعْفَ وجِبْنَ وعاش مغترباً بلا هوية وبلا بنية تحتضنه وتحميه، عقاباً وانتقاماً ليكون عبرة لغيره؛ حتى لا يفكر أحدٌ في الانفلات والهروب، وبذلك تكون البنية الثقافية السائدة، قد قامت بدورها في التسلط، وربما تكون أقسى أنواع السلطة .

يغوص الليل في الفكرة

وأجنحة الصباحات البهية تستوحي لنا العبرة ،

تسافر في ملامح وجهنا العربيّ

أبياتا تقول كفى إلى الماضي

وتعلن نقص ما كان

[إنّ الفتى من يقول ها أنذا

ليس الفتى من يقول [أبي كان...]

ومن أهم من طرح قضية سلطة الثقافة السائدة أحمد عبدالحى في دراسة له بعنوان "الشاعر والسلطة"، في فصل من فصول الدراسة عنوانه سلطة الثقافة السائدة، وأشاد بشدة إلى ما تمثله الثقافة السائدة من خطورة على المجتمع، وانقسامه إلى فصائل تقاد قهراً إلى تبني أفكار متطرفة حيناً ومذهبية أحياناً أخرى، وبين هذا وذلك تضيع بوصلة الفرد الذي يعيش في كنف مجتمع تحكمه بنية مغلقة متعصبة للتراث والتمسك به، فلم يعد يدري أين يتجه وفي أي طريق يسير كـ: وكان أبي يقول

الشعر في الأسواق

وفي الوالي للاسترزاق ،

وفي فخر وأنهار من الخمر المعتقّ ..

وكان أبي عصامينا

وكان أبي جهادياً

كان يقارع الأبطال والإفرنج والأتراك والمستعمر الباغي ،

وكان يدون التاريخ إنساناً ..

ويبحر في محيطات من الرمل ..

لمّ الشمل ، محجوب الأفق ..

وكان أبي عدائياً

يحبّ الذات والشهرة ،

يلبّي داعي لالنخوة ،

يعبّ الكأس ما شاءت له الشهوة ..

ويشرب ما ه صفوا

ويترك ما به كدرٌ لآخر ..

وكان أبي يدو علمه سفرا

يضيء الكون شمسا لا تغيب

وكان أبي فدائياً

يخوض معارك التحرير في الأوطان ،

ويحميها رمالا أو جبالا أو مياها تحضن الشيطان ..

اللغة الساخرة :

ولاحظ بأن الفعل الناقص (كان) يتكرر إحدى عشرة مرة بسخرية ومرارة ، إلا أنه لم يبالغ في استخدام السخرية والاستخفاف بالمتلقي، لأنه يأبه بالناس، ويكثر بدوام صحبتهم، ويحرص على إصلاح ما يمكن استدراكه بأساليب التربية النفسية المتطورة مستخدماً أساليب مختلفة تتم عن هدوء وحسن تصرفه، ودرأته الواسعة التي عمل على تطويرها عن طريق الاطلاع والقراءات المكثفة في كل المجالات، خاصة وأن له مكتبة تحوي آلاف الكتب، وما أنتجه من مؤلفات في الأدب والفلسفة، والسياسية، ودواوين شعر ومشاركات دولية في مختلف الندوات العلمية والمحافل الدولية، ولكننا نجد في شعره السخرية من المواقف المتهائلة موجهة إلى أصحاب النفوذ والسلطة الذين لا يكثرثون بما يحدث بمراءى من العين، ومسمع من الأذن كقوله في قصيدته الهاجس والحرف : " تشفق هذي الأرض السفلى،

لما يصبح هذا الرب بلا ذاكرة ..

والأرباب تجح لرب أبيض، ..

فيثوب أبيض ..

فيبيت أبيض ..

بلسان أبيض .. أجمل منورد بلادتي الأبيض ..

والنيل الأبيض ، وأبيض ، والبيوضة ، والبياضة ، والبيضا ، والدار البيضاء ،

والبيض كثير في وطني،

لا يفقس غير دجاجاتِ بعباءاتٍ وعقالاتٍ وعماماتٍ بيضاء . .

لم يفقس يوماً ديكاً ذا عرف " (14).

كل ذلك تعبير عن رفض وغضب وثورة ولكن ضمن إرادة هادئة رصينة لإدراكه
الكامل أنّ الطريقة الخاطئة لتعاطي الدواء لا تجلب الشفاء . لالتحاق بالركب يستلزم
حرق المراحل، بل أيضاً لأنه يتطلب مواكبة حركة الركب المتسارعة، حتى قبل
الالتحاق به . يقول الشاعر :

" هانت علينا النفس ،

أضحى الضدّ شرعتنا..

آن الأوان لوجدان يحبّ الغرس

دفع الشمس

طهر النفس

عشق الفعل

حرف الطفل

إنسان الوطن"

إن نجاح الشاعر الحامل للمشروع الثقافي الخلاق على ذكائه في كيفية الهروب من سلطة المتلقي المتعصب بالثقافة السائدة، التي لا مناص من تسربها إلى وعي مبدع النص لتخضعه لمقتضى حالها في التلقي، من حيث القوانين، والحرام الممنوع، والحلال المسموح والمتاح .

لذلك فإن التساؤل الذي شغل أدونيس بداياته في الكتابة، ثم فرض نفسه عليه بالباح هو "كيف أحرر الشعري من الشرعي، والجمالي من الأخلاقي _ المؤسسي؟" ثم اقترن هذا السؤال بتساؤل أبعد هو: " لماذا تصر ثقافتنا على أن تُسوّغ (الما بعد) ب (الما قبل) وعلى أن تفسر الأول وتقومه، انطلاقاً من الثاني " (15).

تمثيل وانعكاس لما تمثله السلطة الثقافية السائدة من سطوة وسيطرة، وتظل المشكلة في السواد الأعظم، وفي أن المورث التراثي استعبادي، يدعو للطاعة والخنوع، طاعة الشيخ، والمفتي، والآباء، وأولي الأمر منا، خدمة لتلك السلطات التي تستفيد من جثة الثقافة وجثة الإنسان وتعيش عليهما، فكلاهما مجني عليه. ولعل إدراك عبدالرؤوف لهذا التجني دعاه إلى أن يقول :

” وكان أبي مع الأيام صوفيًا

يغرّد باسم خالفة ،

يذوب القلب بأسم الله

وياالله .. يا الله .. ويامئتان ..”

الخاتمة :

إن إدراك الأبعاد الدلالية لشعر عبدالرؤوف من حيث كيفية التعامل مع التراث ،لا يمكن أن تكتمل إلا بإدراك كونه خطاباً مفتوحاً لا يدين التراث بقدر ما يحافظ

على حضوره في النصوص الإبداعية كمفهوم إيديولوجي معرفي ضروري في الثقافة العربية الراهنة، من أجل تأكيد الوجود وإثبات الذات ، ولكن بشرط ألا يكون أقرب إليها من حاضرها على صعيد الوعي واللاوعي معاً، وفي نفس الوقت يستهجن ضياع الهوية العربية تحت حفظ التحديات الخارجية والارتقاء الكامل في أحضان الآخر، يرسم له حاضره؛ فلن يعد للجيل القادم ما يفخر به من إرث يمثل، العروبة والأصالة، والتاريخ المشرف.

ولعلي في حاجة إلى القول بأنه قد آن أوان المساهمة في إنجاح مشروع هؤلاء الشعراء، الذين وإن صمدت فئة منهم في مواجهة السيل العارم من طوفان الثقافة الغربية، وما تروجه لنا إذاعاتهم المختلفة من أمثال(BBC)أو أجهزة استخباراتهم أمثال (CIA)وغيرها، وبين الارتقاء الكامل في أحضان ثقافة التراث وإن كان مشرفاً ومشرقاً، لن يستطيعوا أن يحملوا الراية ويناضلوا في آنٍ واحد مقبلين مكرّين ممزقين وقليلاً ما يفرون .

الملاحق:

قصيدة (إنسان الوطن) ل عبد الرؤوف بابكر السيد

وتطيب لي لغة حروف هجانها الإيماء ،

والهمس ، التخاطر ، والمشاعر ، والدوائر ،

والمهاجر في القرون بلا شرع ..

ويطيب لي أن أستفيد من البعيد ،

الرمز يخفق مثل تشكيل الرموز ..

بلوح بد الخلق والأجاوع والقيود الحديد مع الصراع ..

تتشاءب الكلمات حين تكون قافية بلا معنى ،

ومفردة بلا إيقاع ،

تتسرب الكلمات بالوصف والتقدير للماضي وللطفل الذي يأتي بغير هدى ..

ويموت جذر الفعل حين تلوكه الأفواه

لا طعما ولا اسما ولا حرفا

يجر الصوت نحو القاع

تسد منافذ السماع

يغوص الليل في الفكرة

وأجنحة الصباحات البهية تستوحي لنا العبرة ،

تسافر في ملامح وجهنا العربيّ

أبياتا تقول كفى إلى الماضي

وتعلن نقص ما كان

[إنّ الفتى من يقول ها أنذا

ليس الفتى من يقول] أبي كان

وكان أبي يقول الشعر في الأسواق

وفي الوالي للاسترزاق ،

وفي فخر وأنهار من الخمر المعتقّ ..

وكان أبي عصامياً

وكان أبي جهادياً

كان يقارع الأبطال والإفرنج والأتراك والمستعمر الباغي ،

وكان يدون التاريخ إنساناً ..

ويبحر في محيطات من الرمل ..

لمّ الشمل ، محجوب الأفق ..

وكان أبي عدائياً

يحبّ الذات والشهرة ،

يلبّي داعي النخوة ،

يعبّ الكأس ما شاءت له الشهوة ..

ويشرب ماءه صفواً

ويترك ما به كدرٌ لآخر ..

وكان أبي يدو علمه سفراً

يضيء الكون شمسا لا تغيب

وكان أبي فدانياً

يخوض معارك التحرير في الأوطان ،

ويحميها رمالا أو جبالا أو مياها تحضن الشيطان ..

وكان أبي مع الأيام صوفيًا

يغرّد باسم خالفة ،

يذوب القلب بأسم الله

وياالله .. يا الله .. ويامئان ..

بمفردة يطوف العالم الدنيا ، ويطوي عالم النسيان .

وجنت أنا ، وها أنذا

أسرّجُ سهوة الماضي

مسابقا للريح أهربُ للورا

ومرتميا بأحضان المنية .. لم أذق طعم الحياة ..

أنا المفجوع في لغتي .. التي تاهت مخارجها ، مفاصلها بغير هدىً

أنا الموجوع في وطني ..

وقد أضحى ملعبا للجمر ،

تطربه القوافي في الرثاء ..

وفي الماضي الذي ولّى بلا استحيا ،

أودّ هنا _ مستأذنا قاماتكم _

أن أسبق الخطب العصية

وأعرض للقضية

رافعا صوتي : أنا ابن العصر

أحملُ شمعتي وسط الظلام

وأخلصُ الناجين من تحت الركاب

وأضمدُ الجرح الذي لا زار ينزف

من عهود خطها الفعلُ ونام

بإيقاع وأصوات نديّة ،

صاغها التهميش في الأحلام

أنا ابن الهجرة الأولى

أعرّي الصدر والرئتين

حين أشقّه الوادي أنقب عن بني الإنسان ،

يقتسمونه زادي ..

أنا ابن السيرة الأولى

مغول العصر يقتحمون بغدادي

ويستلبون أولادي

وينتهكون أعراضي

وها أنذا ألمم أحرفي الثكلي لأحفادي

في دفتر الأحزان ينغرسُ الوطن ،

وأرسم لوحتي ، فإذا بها الإنسان ،
وأعيد تشكيل الحروف تعانق الأيام ..

من أنت يا هذا ؟؟

أنا ذلك المحمول في كفّ القدر

الشمس تحرقه لظى

لا يحمي أو يتّقي سيف الصقيع

فيلوذ بالحرف الذي ..

ويلوذ بالكلمات ينثرها ،

ويعوذ بالإنسان من فعل البشر

ويسائل الكيف الذي ..

وعن المتى ،

الأيّن ..

يدقّ الطبل ،

يهزّ الأرض بالأقدام

حتى يستجيب لها المطر ..

ما جنّت كي أفني

أو أنحنى وسط الصقيع

أو أقتني وقع الأثر ، في دورة الأيام أو في ساحة الحكّام ..

فتقلّبت جنباتها الدينا لظيِّ

مما أعاني أو نعاني من محن ،

نهشت مخالبتها من الوجدان لحظات الفرح

ما من صغير أو كبير في إلا وانجرح ،

ما من شموخ أو طموح فيي إلا وانطرح ،

قلنا نناصل بالحروف

فحاصروا فينا البوادي والمدن

قلنا نصالح ..

فاستمالتنا مغارات الشجن

قلنا صلات القرب تهدينا ،

صلات الغرب تحميننا ..

فداهمنا الوهن

قلنا لنا الله ،

قال الله ما بالنفس حبُّ قد سُجِن ،

فكّوا إसार الحبّ في جنباتكم

هو طفل جنّتي التي أعدتها لأمينها والمؤمن .

شبهت وقالت كيف ذا ؟

قلبت لنا ظهر المجن ،

وتناثرت حقداً يغصّ الحلق ،

يمدّ الفتق ،

يجافي الفرق ،

يسدّ الأفق

يعصيب للعيون ..

ويقهر للزمن

هذا أنا أحيا على جرّع الدواء

ومسكنات من دعاء ،

كفّ البلاء..

هذا أنا أمشي على استحياء

هذا أنا أمشي على الأشلاء

وهذا البؤس يطوي السعد يخدش للصفاء

هذا الرياء عقيدةٌ أضحي

وأصبح قوتنا اليومي طعم العجز مدفوع الثمن

طالت أيادينا حروف حديثنا

والشرخ زاد مع الأرق

كلّ الخطاوي الهائمات على الطرق ،

قد هاجرت نحو النفق ..

أفق تكسّر حدّ ما نبصر ،

همّ تكلّس حدّ ما نشعر

عينٌ تكحلها الدياجي ، ويرهبها القدر

قلب تدثّر بالموات فلم يمت

لكنّه ألف الوسن ..

الكهفُ يحرمه .. يطعمه

والجوع يحكمه

والخوف يسكنه

هجرته ما خطّته من قيم

أرسي دعائمها الزمن ..

هانت علينا النفس ،

أضحى الضدّ شرعتنا ..

آن الأوان لوجدان يحبّ الغرس

دفع الشمس

طهر النفس

عشق الفعل

حرف الطفل

إنسان الوطن (...)

الهوامش :

1. محي الدين صبحي ، الشعر وطقوس الحضارة دراسات في الشعر العربي الحديث ، دار الملتقى للطباعة والنشر ، ط 1 ، 1996 ف ، ص 131 .
2. أحمد بن الأمين الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، دار الكوثر ، دمشق ، سوريا ط 1 ، 1998 ف ، ص 76 .
3. سعيد اللحام ، نوادر الشعراء ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 2002 ف ، ص 23 .
4. أبو العلاء المعري ، ديوانه لزوم ما لا يلزم ، مطبعة الجمالية مصر ، ط 1 1915 ف ، ج 2 ، ص 164 .
5. المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 48 .
6. المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 61 .
7. حسن أحمد الأشلم ، بحثاً عن المعلقة بحثاً عن عكاظ ، ع 1 .
8. ينظر سعد التميمي ، (عبدالرؤوف بابكر السيد ، سيرة للوطن والذات) ، مجلة الثقافة ، العدد 21 ، سنة 2001 ف
9. نفسه ، ص 245 .
10. علي محمد شلتوت ، علم الاجتماع التربوي ، جامعة الإسكندرية ، 1970 ف ، ص 17 .
11. سعدي صناوي ، مدخل إلى علم اجتماع الأدب ، ص 274 .
12. مصطفى سويف ، الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي ، دار المعارف ، مصر ، ط 1959 ف ، ص 303 .
13. ينظر إريك فروم ، الإنسان بين الجوهر والمظهر ، ت سعد زهران ، سلسلة عالم المعرفة ، ع 140 .
14. عبدالرؤوف بابكر السيد ، المجموعة الشعرية (الحروف) ، قصيدة "وترية الهاجس والحرف" ، ص 11 .
15. أدونيس ، الشرع والشعر ، مجلة فصول ، مج 11 ، ع 3 ، ص 66 .